الفلسفة والحياة

من أجل تغريض فلسفة الفلسفة

ب. عمر طرواية/ جامعة تلمسان¹

ملخص المقال:

عندما نتأمل في كلمتي (الفلسفة) و (الحياة) يبدو لنا وكأنهما مفهومين اجتماعا صدفة – كباقي العلوم مع الفلسفة – لمعرفة العلاقة القائمة بينهما. ولكن حقيقة الأمر يبين لنا عكس ذلك، فالتجارب الإنسانية و إنجازاته المختلفة وعلاقاته مع بني جنسه تعكس لنا تلك الصورة الواحدة التي تجمع بين معنيي " الفلسفة " و " الحياة " من خلال مفهوم " الفكر " ، وهذا الأخير بدوره ظهر مع ظهور الإنسان منذ الوهلة الأولى ، حينما أراد أن يجيب عن أسئلته التي تؤسس لمفهوم الفلسفة وفي الوقت نفسه تقدم له الإمكانيات و الشروط اللازمة لتأسيس معنى لحياته: لماذا أنا موجود؟ ما الحقيقة؟ كيف نفكر؟ ما الحكمة؟ هل المعرفة ممكنة؟ كيف نفرّق بين ما هو خير وشر؟ ... الخ.

إذن، فالاشتغال بالفكر في جانبه الفلسفي عملية مميزة تستدعي شرط (التأمل) ، وأي تأمل؟ إلا ذاك الذي يعلمنا كيف نعيش ونستبصر معاني اتيقا الحياة بجلوها ومُرّها ، سعادتها و شقاوتها، وجميع تناقضاتها، وهو موقف نجد دلالاته في العبارة السقراطية الشهيرة: " ما استحقت الحياة أن نعيشها، إن لم نتأملها جيدا " .

فمن خلال هذا المقال سنحاول فهم أبعاد العلاقة التي تربط بين (الفلسفة) و (الحياة) ، وأهم المفاهيم الأساسية التي تندرج تحتها، لأن – كما قلنا سابقا – لا يمكن تحقيق المراد الذي نسعى إليه وراء هذا البحث إذا أقرينا بمبدأ الصدفة التي تجمع بين (الفلسفة) و (الحياة). حيث سنقف على حقيقة الفلسفة و أهميتها في بناء وتشكيل الوعي الإنساني، ثم نتطرق إلى التعليق على بعض المقولات التي ترسم إحداثيات هذا الوعي ، ومدى قدرتنا على وجود نقاط التنافر والانفصال و الضيق بين المقولة ونظيرتها وتحويلها إلى نقاط التجاذب و الاتصال والاتساع. وفي الأخير سنحاول تقديم قراءة استشرافية لاستخلاص السبل السامية من مفهوم الفلسفة وعلاقتها بالمعيش و الحياة عموما ، وكيفية تأسيس حياة إنسانية تتأسس وتتنبس من رثة الحكمة الفلسفية .

Summary :The philosophy and life: to give a philosophical sense to philosophy

When observing the two words "philosophy" and "life", they will appear to us that they have the same meaning that has met unexpectedly as wholes science with philosophy, to know the relationship between them, but the real truth soft watch quite the opposite. That is to say, the experiences of the human being his various achievements, relationships with individuals, we appear this unique image which met the philosophy and life through. The latter appeared with the appearance of human beings of the first; when he wanted answer questions: who founded the concept

"philosophy" and at the same time she gives him the means and the necessary conditions for the creation of the meaning of life, why I exist? How we think? What is wisdom? How we differentiate between goodness and evil? Is knowledge possible? ... Ex...

So; operation of philosophical thought is an exceptional operation that carries the condition of meditation; what is meditation? It is that which shows us how bright? And we will observe the meaning of life with its contradictions.

From this article we want to understand the relationship between philosophy and life and the fundamental concepts to confirm the unannounced relationship between the two concepts.

إن من أجمل المواقف التي حدثت مع أشهر حكماء اليونان (سقراط) أنه جعل من المقولة التي نُقِشت في مدخل معبد " دلف " Delphi : (ما استحقت الحياة أن نعيشها إن لم نتأملها جيدا) كقاعدة أساسية لتشييد مذهب فلسفي بتلك السمة العالية من الفكر والمعرفة التي تميز بها صاحبها . وهذه المرحلة من الوعي البشري - في إطار الفكر الفلسفي - التي تميزت بها الثقافة اليونانية آنذاك انعكست بوضوح في كل مجالات الحياة : الاجتماعية ، السياسية ، الثقافية ، الأخلاقية ، الدينية... الخ ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على وجود تناغم وانسجام بين نظم ومؤسسات (دولة المدينة) من أجل تحقيق الأمن والاستقرار والسعادة المطلقة ، أي كانت هناك (بايديا) مكتملة ومنظمة كوّنت الفرد الأثيني من كل النواحي : فكريا ، نفسيا ، وجسميا وبالتالي صنعت (أي البايديا) واقع مجتمعي سليم قامت ببنائه التحفية على الحكمة الفلسفية بدون منازع .

وعليه ، أن الغرض من كتابتنا لهذا المقال هو محاولتنا لإبراز الجزء الايجابي والمضيء من هذا التأمل ذو أساس عقلي ، و في الوقت نفسه وضع هذا الأخير على مؤشر التوازن بين كفتي التفريط و الإفراط ، لكي تتمكن على الأقل من التمييز في هذا الوجود بين ما هو وهم و حقيقي ، وبين ما هو معقول واللامعقول ، وبين ما هو صواب وخطأ ، وبين ما هو أساسي و ثانوي . حتى تتمكن في آخر المطاف من تحقيق (اتراكسيا دينامية) تتجه نحو " الذات " ولتتبع من جديد متجهة نحو الخارج ترى (الذوات الأخرى كعينها) ، و هاهنا تكمن حقيقة (التربية الفلسفية) : تربية تنزل الفلسفة من بُرجها العاجي وتدخل بها إلى المنازل والأسواق والنظم وكل مؤسسات الدولة ، وفلسفة تنزع من التربية كل ما هو ميتافيزيقي خرافي و تدخلها إلى عالم لا يفكر إلا بالحكمة و ولا ينطق إلا بحضور الحكمة ويعيش إلا من أجل الحكمة .

ومن خلال هذه الأفكار السابقة يمكننا أن نطرح بعض الأسئلة المختلفة ، والتي بدورها ستساهم في صياغتنا للإشكالية الجوهرية للمقال : لماذا نحن هنا؟ هل هناك من غاية لحياتنا؟ ما الدافع الذي يجعلنا نتفلسف؟ ما الذي يحدد

الخطأ والصواب؟ هل من الممكن أن تكون حياتنا مجرد حلم ؟ هل يمكن تحقيق مستقبل يأخذ فيه الوعي البشري استقلاليتها وحرية من كل القيود والعوائق التي جعلته طيلة هذه الفترة حبيس (مركزية الذات) في كل الأحوال والمواقف ؟ إذا، وانطلاقاً من كل ما تقدم : كيف يمكن لهذا النوع من التأمل (أي التفكير الفلسفي) أن نجعله مفتاح من المفاتيح المناسبة لحل مشاكل الحياة في صورتها: الأنطولوجية والابستمولوجية و الاكسيولوجية، في ظل تعدد العلوم وتقدمها من فترة إلى أخرى؟.

من المعروف أن البذور الأولى للتفكير الفلسفي قد ظهرت في الحضارات الشرقية ، قبل بزوغها بصورة مكتملة مع الحضارة اليونانية ، كبداية لتشكيل الوعي البشري من خلال تلك الممارسات الدينية و الطقوس التعبدية وبعض من التجارب العلمية الذي طغى عليها الطابع التطبيقي أكثر ما هو نظري ، وهذا من أجل محاولة الإنسان الشرقي التأقلم مع الطبيعة والكون معاً، بشيء من الحكمة و لغة تحمل دلالات و رمزيات فلسفية وفق نمط الحياة المعيشي الذي كان يسود كل حضارة وأخرى.

وهكذا تطورت الفلسفة عبر التاريخ البشري كلما توسعت حضارة وثقافة الإنسان وتعمقت مشاكله : الاجتماعية، الفكرية، اللغوية ، الاقتصادية ، السياسية... الخ، وصولاً إلى يومنا هذا مع ظروف و حالات خاصة تختلف تماماً على كل الأزمنة الماضية ، جعلت الإنسان المعاصر يبحث ويحقق ويفترض و يستنتج عدّة نظريات ضمن حقل " العلوم الإنسانية والاجتماعية " لعله يجد إجابات شافية ووافية تنقذه من بحر هائج أمواجه تقذفه إلى جزر القلق والخوف من المستقبل أو تدفنه في شواطئ العدمية والموت . فكما ظهر عالم الاجتماع و عالم النفس و عالم التربية والسياسي ورجل الدين داخل الفضاء العمومي ، كان لا بدّ من ظهور " الفيلسوف " ذلك الشخص الذي أبقى إلا أن يساهم في عملية الكشف عن أسرار الحياة ووجودها بأدواته : الفينومينولوجية ، الهيرمينوطيقية ، النقدية ، التحليلية ، التركيبية ، ...، مؤكداً على ضرورة وأهمية " الفلسفة " في هذه الحياة المظلمة من خلال عملية التفلسف البناء ، وأنه لا يمكن فهم مسائل و موضوعات الفلسفة إلا بعد فهم هذا الكائن المجهول بالدخول إلى أغوار وعيه الباطني لاكتشاف أسباب سعادته و فرحه ، خوفه و قلقه ، ما يجبه ويكرهه فهذه الأسباب ذاتها تعدّ "مشكلات فلسفية"، وفي هذا السياق يذكر لنا " جون كولر " J.M.Koller في كتابه (الفكر الشرقي القديم) عن حقيقة الفلسفة وأهميتها في الحياة الإنسانية قائلاً: (قصة الفلسفة هي قصة التأمل البشري في الحياة، ومشكلات الحياة هي نبع الفلسفة ومحك اختبارها... ذلك أن المصدرين الأساسيين للفلسفة هما الفضول فيما يتعلق بالذات وبالعلم، والرغبة في التغلب على جميع أنواع

المعاناة... وعلى هذا النحو فإننا نفحص أي نوع من الكائنات نكون؟ وفي أي نوع من العالم نعيش كما نفحص مصادر القيمة والمعرفة التي تميز وجودنا، فالنشاط الذي يدور حول تأمل الذات هو ما يشكل الفلسفة¹.

وهذا الموقف الصريح لـ "كولر" يبيّن لنا بأن لا وجود إلا من خلال ما ندركه داخل ذاتنا، وأن لا شيء خارج النص أي كل المشكلات التي نعاني منها هي نتاج سياقاتنا الاجتماعية والفكرية وطبيعة وعينا المحدود، وأن اللغة بيت الوجود أي أن كل خطاباتنا ومواقفنا هي إلا تعبير عن أحوالنا الشعورية في قوالب لغوية. وعليه قام "بوذا" بدعوة تلاميذه إلى إعمال العقل في صورة تعاليم أخلاقية لتحقيق (النيرفانا)، وأكد "سقراط" أنه لا يمكننا الوصول إلى المعرفة والسعادة إلا من خلال معرفة أنفسنا بأنفسنا في الوقت نفسه، وتوصل "ديكارت" بأنه لا يمكن معرفة وجودنا من عدمنا في هذا العالم ما لم تكن لدينا "أنا" واعية، ولم يتمكن "نيتشه" من تهديم ما هدمه وتشيد ما بناه إلى بعد لبسه ثوب "الإنسان الكامل أو السوبرمان". فهذه النماذج من الفلاسفة - بالرغم من اختلاف أهداف ومقاصد كل واحد منهم - كان الغرض من عرضها هو توضيح تأثير التفكير الفلسفي على شخصية الإنسان و تفكيره، فبدل التفكير في المصلحة الخاصة أو في الغاية المؤقتة، فإن "الفلسفة" تدعونا للسعي إلى المنفعة الجماعية و تحقيق الأهداف طويلة المدى التي تصلح لكل زمان ومكان، وهي الفكرة ذاتها تطرق إليها "أرسطو" Aristotle في كتابه (البروتريتيقوس) أو الدعوة للفلسفة حيث أكد أن (الإنسان الذي يستعمل التفلسف والتفكير يطلب الأشياء لذاتها وليست لغاية أخرى، وهذه هي صفة الحياة الحرة، أي تفضيل الخير على الضروري).²

ومن الملاحظ أيضا، من خلال هذه النماذج، أن أغلب الفلاسفة ومنذ البذور الأولى للتفكير الفلسفي إلى الفلسفة المعاصرة، حاول هؤلاء تأسيس مذاهبهم الفلسفية انطلاقا من مبدأ أخلاقي، وهذا الأخير لا نعني به هنا الدلالة "الإتقية السطحية" وإنما تحيل إلى التجربة الخلاقة التي يمارسها الفيلسوف في حياته اليومية بدون أن تملي عليه أي قوة أو سلطة تتحكم فيه، فهي بمثابة "تربية ذاتية" تعكس قوة وشخصية الفيلسوف في عقله الحر وفلسفته الثائرة على كل مبدأ أو نص تمنع (الذات العاقلة) الانتقال من الاستماع إلى الإبداع، ومن التقليد إلى التجديد، ومن الأس إلى الأساس. كون أن التربية الحقة (تنطلق من الحمية التي تدفع الإنسان إلى اختيار الوسائل التي بها ينقذ بعض القرارات التي يتخذها في وضعيته، وهذه الحمية كدافع حيوي تربطه بالحيط الذي يحيا فيه أي بغيره من الذوات والإرادات).³ وهذا الموقف يجعلنا نؤكد على أن لا حرية للإنسان ما لم يكن هناك تزاوج أو تداخل بين "الفلسفة" كعملية تفكير حي و "التربية" ذات قوة روحية مبدعة لا تقبل إلا ما هو حق وواقعي، وفي حقيقة الأمر هما إلا وجهين لعملة واحدة (اللوغس) أي "العقل" وهو الإله الذي بداخل كل واحد فينا، ينقذ من أحسن إليه و يهمل من أهمله.

1 - نقلا عن: محمد جديدي، الفلسفة الإغريقية، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف - الجزائر، الطبعة الأولى 2009، ص 56.

2 - أرسطو، دعوة للفلسفة، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، بدون طبعة، ص 32.

3 - محمد شوقي الزين، الثقافة في الأزمنة العجاف، منشورات الاختلاف - الجزائر، الطبعة الأولى 2014، ص 329 330.

فها هي الحضارة اليونانية - كنموذج للثقافة الغربية - خلّدت اسمها في تاريخ البشرية عندما قدّست العقل وجعلته رمز الحرية والإبداع وأساس الفضيلة والسعادة ، أطلق عليه الفيلسوف الألماني (فزير ياغر 1888-1961) W.Jaeger ، في كتابه الموسوم بـ (بايديا: تكوين الإنسان الإغريقي) عندما أراد توضيح العلاقة بين الثقافة و التربية ، باسم " المثال " حين قال : (أن الأمر الجوهرى الذى يسرى داخل الثقافة الإغريقية هو " المثال " ، ليس كمقولة مفارقة و إنما بوصفه الدافع نحو الاكتمال و التحقق والتخلّق، والذي يجعل من التربية فلسفة عملية، وبمثابة مفاتيح تصويرية في قراءة الحياة أو ذخائر عملية قابل للتصريف والتداول (...)¹ ، وتجسد هذا " المثال " بشكل جلي مع الحركة السفسطائية - قبل "الاتيقا" السقراطية ، و " المثالية " الأفلاطونية ، و " الأورغانون " الأرسطى - التي جعلت من فكرة " الحرية " من أبرز المقولات الأساسية في إعداد الإنسان الأثينى فلسفياً وتربوياً ، وهي ما تشير إليه المقولة الشهيرة لأحد زعمائها "بروتاغوراس" Protagoras 410-480 ق . م حيث قال : (أن الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس وجود ما يوجد من الأشياء، ومقياس لا وجود ما لا يوجد منها) .

كما نجد هذه الدعوة أيضاً في ثقافتنا العربية الإسلامية مع بعض فلاسفتنا القدماء ومفكرينا المحدثين والمعاصرين، الذين عرفوا دور " العقل " وقيمته في إصلاح الفكر والإنسان والواقع². وفي الحقيقة هي دعوة إلهية سماوية ، كرسالة إلى جميع البشر في كل زمان ومكان ، تتمثل في (القرآن الكريم) وقد جاء فيه { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . { الإسراء/ الآية 70 . وهي دعوة صريحة فيها تكريم للإنسان من خلال هذه الملكة ، باعتبارها أداة للخلاص و التهذيب و الاعتدال وإصلاح للنفوس ، ومن التعبيرات الفلسفية لهذا " التكريم " تلك التي تطرق إليها (محمد عابد الجابري) في كتابه " العقل الأخلاقي العربي " من خلال إشارته للعلاقة القائمة بين التربية والفلسفة ، حيث يستطرد قائلاً: (ومن هنا كان الهدف من الأخلاق هو خلاص النفس، ويكون الخلاص ، بالعقل، بالفلسفة. فبالفلسفة يعرف الإنسان العالم وكيف خلّق، ويعرف النفس الكلية التي منها انبثقت نفسه.)³

من خلال هذه الأسطر التي كتبناها عن " العقل " لا يعني ذلك تقديسه وتمجيده إلى درجة يجعلنا نعتبره لا يقع في الأخطاء أو أنه مطلق لا يشوبه الخلل والنقص، وإنما أردنا توضيح مسألة مهمة مفادها : بأن التوظيف الحسن لهذه الملكة ، وعدم الإفراط أو التفريط فيها، يمكننا من معرفة الدروب الصحيحة الخالية من سراب الأوهام والخيال و الخداع ، نبلغ به مقام الحقيقة الخالدة حيث يكون هناك صفاء للعقول ونقاء للقلوب وبقاء للأرواح. وعليه، فإن سلامة

1 - نقلا عن : المرجع نفسه ، ص 330.

2 - كما لا يمكن إنكار دور " القلب " في عملية التربية الفلسفية، وهو أداة لأهل الصوفية في أدواقهم الروحية و تجاربهم الدينية من خلال سفرهم إلى الحقيقة المطلقة حيث يكون هناك الفناء والكشف والبقاء. وكأنهم يأخذون بالحديث النبوي الشريف (... ألا وإن في الجسد مضعة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب.) متفق عليه.

3 - نقلا عن : محمد شوقي الزين، المرجع السابق، ص 346.

العقول تؤدي إلى سلامة التفكير (الفلسفة الحقة) وإلى الاكتمال الخلقى (التربية العملية)، وبالتالي فاندماج النظري بالعمل يساهم في معرفة أسرار الوجود ونقائضها ، ومن ثمّ تساعد على تضييق الهوة بين النقيض ومثيله .

وعلى أن موضوع الإنسان موضوع غامض ومعقد يصعب على الباحث (المفكر، الفيلسوف ، عالم الاجتماع، عالم النفس ،...) الوصول إلى إجابات مطلقة أو حقائق يمكن من خلالها فهم مقاصده وغاياته بوضوح ، أو على الأقل محاولة الحد من ردة أفعاله التي تكون في الغالب مناقضة للحياة الإنسانية (القتل ، الاغتصاب ، التعذيب، الخراب و الدمار). وهذا كله راجع - كما ذكرنا سابقا - إلى الفهم الخاطئ و التفسير الدوغمائي للعديد من المقولات الأساسية والتي تحمل في جوهرها أبعاد ودلالات إنسانية الحقة ؛ ولكن للأسف وُظفت هذه المقولات (ايدولوجيا) وظهرت من داخلها ثنائيات متنافرة الطرف الطاعني منها يسير من طرف الأقوياء لاستغلال واستبداد الضعفاء، ومن بين هذه الثنائيات - و سنحاول التعليق عليها بلغة تربوية فلسفية قصد تضييق الهوة على المقولة ووجها الثاني وليس نقيضتها - التي ترسم إحدائيات الوعي البشري نذكر منها : الأنا / الأخر ، الفكر / الواقع ، العقل (الفلسفة)/النقل (الإيمان) ، الطبيعة / الثقافة ، الفلسفة / العلم .

تعد ثنائية الأنا / الأخر أهم القضايا الفكرية وعصبها منذ القدم إلى يومنا هذا ، سواء عند العرب أو الغرب ، حيث شغلت بال العديد من الباحثين والمفكرين في كتاباتهم التي لا تخلو من النقد و التحليل و الشرح المعمق حول هذه الثنائية، فتجد الكثير منهم ينتقد ويتهجم على من يختلف معه في : اللغة أو المعتقد أو الثقافة عموما بأنه السبب الرئيسي في تأزم وانفصال بين الذات و الأخر ؛ لكن بالرغم من ذلك يوجد بعض الباحثين والمفكرين بمثابة (أطباء) بما تحمله الكلمة من معاني ، حيث يقومون بتشخيص العلاقة القائمة بين المقولتين، فيجمعون بين ما هو صواب ويعدلون كل ما فهم خطأ عن كل واحد منها ، وبالتالي تتحول طبيعة الثنائية - مع هؤلاء الأطباء - من حالة التنافر و الانفصال والانساع إلى حالة التجاذب والاتصال والضييق، ونحن من هذا الأساس وبقراءة موضوعية فلسفية نحاول التأكيد على ضرورة القبول بالاختلاف (الظاهري) الذي يؤدي إلى الوحدة و التفاهم و الاحترام والتسامح وهي رموز إنسانية سامية، وهذه الأخيرة لا تتحقق إلا إذا أدرك الإنسان بأن لا جدوى من هذه الحياة إذا كان فقط متلقي ومتأمل فيها؛ وإنما عليه أن يكون مع هذا الآخر في علاقة بناء و مساهمة في بناء رؤية جديدة للواقع أي تشكيل صورة مميزة ومتكاملة بينه وبين العالم .

وهناك العديد من الفلسفات العالمية التي عبّرت عن هذا " البناء " ، كل واحدة بطريقتها الخاصة بقوالب مفاهيمية توحي إلى اللمسة الإبداعية لأصحابها في معالجة هذه الثنائية . ففي تراث الثقافة الإسلامية، ومن جانب التفكير الصوفي ، نستحضر فلسفة الشيخ الأكبر " محي الدين ابن عربي " (ت 837 هـ) كنموذج بارز دعا إلى جعل العلاقة بين الأنا والآخر تكون علاقة اتحاد واتصال ، لأنه يرى بأن ما دام هناك إله واحد معبود تخضع إليه كل البشرية فلا فرق بين

دين وآخر فهذا الاختلاف يجب ألا يؤثر على مبدأ الإنسانية التي تجمع بين الأنا والآخر، و موقفه هذا صاغها في فكرة (وحدة الأديان) والتي ترجع في الأصل إلى مذهبه الفلسفي الموسوم بـ (وحدة الوجود). حيث يؤكد "ابن عربي" بأن (علاقة الله بالعالم تصبح علاقة تجلي الحق في الموجودات، علاقة ظهور الحق في الأشياء، وليست علاقة انفصال بين محدث ومحدث)¹. وهذا الموقف السامي وصل صداه - بطابعة الديني - في الفترة الحديثة داخل ثقافتنا مع الفيلسوف الهندي المجدد " محمد إقبال " (1877-1938) في إطار مشروعه الفلسفي (التجديد في التفكير الديني) ، وهذا ما يجعلنا نعتبره بأنه أحسن نموذج ، إن صح التعبير، قام بإحياء المذهب الفلسفي لابن عربي من جديد . فقد عمل " محمد إقبال " على (تأسيس مشروع المسلم العالمي الذي لا تقيدته حدود جغرافية أو ثقافية ، ومن هذا المبدأ دعا إلى فكرة السلم من خلال رفضه لأطروحة القومية والعنصرية التي لا علاقة لها بمضمون و أهداف الديانة الإسلامية)².

ومن زاوية أخرى ، والتي لا تقل أهمية على ما ذكرناه آنفا ، لقد ظهرت في الفلسفة العربية المعاصرة مصطلح " الشخصية " ، وهذه الأخيرة تعود إلى الفيلسوف الفرنسي (إمانويل مونييه) (1905M.Emmanuel-1950)³، مع كل من " روني حبشي " و " شارل مالك " في لبنان تبلور مشروعهم باسم (الشخصية المتوسطة)، و " محمد عزيز الحبابي " في المغرب ، وهذا الأخير قد استلهم هذه الفلسفة ببارعة داخل ثقافتنا من خلال تبنيته دلالاتها من القرآن الكريم (الشخصية الإسلامية). و في العموم لقد حملت " الشخصية " في جوهرها معاني ودلالات تعبر عن الصورة الحسنة التي يجب أن تكون عليها العلاقة بين هذه الثنائية ، أي أنها كانت تهدف إلى (تمجيد الإنسان و الدعوة إلى الحوار بين البشر ، واحترام ثقافتهم ودياناتهم، وكل ما يشكل خصوصياتهم بعيدا عن كل شوفينية وانعزالية)⁴

وهذه الدعوى لم تقتصر فقط عند مفكري العرب و المسلمين؛ وإنما تجلت أيضا في كتابات المفكرين الغرب ونذكر منهم الفيلسوف الفرنسي " إيمانويل ليفيناس " (1906E.Levinas-1995) صاحب كتاب (الكونية و اللانهاية) حيث عالج هذه الثنائية من مبدأ (الأخلاق النظرية)، وهي أخلاق معقلنة تعلمنا كيف نحترم وتعايش مع الآخر، وقد ذهب به الأمر إلى القول في كتابه " الأخلاق النظرية و اللانهاية " (ما إن ينظر الآخر إليّ حتى أكون

¹ - بلحمام نجاة، السلم : الثقافات والأديان من (مفهوم السلم في الفلسفة السياسية)، مخبر البحث " فلسفة، علوم و تنمية بالجزائر ، مشروع البحث الوطني PNR- جامعة وهران - الجزائر ، الطبعة الأولى 2013 ، ص 59.

² - بلحمام نجاة، المرجع السابق، ص 70 .

³ - وهي فلسفة تستلهم أهميتها من عمق تواجد الإنسان في هذا الكون ، ومن اتصاله اتصالا مباشرا مع الآخرين واشترائه معهم في مبادئ كونية ك: الحرية ، التواصل ، الصداقة ، الكرامة ، الإنسانية، والحقيقة الذاتية. - عمر مهيبيل، من النسق إلى الذات ، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف - الجزائر ، الطبعة الأولى 2007 ، ص 104 .

⁴ - عمر مهيبيل ، المرجع نفسه ، ص 109 .

مستولا عنه) ، وفي كتاب آخر عنوانه " فيما بيننا " يقول : (إنني لا أقول إن الآخر هو الله؛ بل أقول إنني أسمع في وجهه كلام الله)¹

كما تحيلنا هذه الثنائية أيضا إلى فكري (التواصل) و (الاعتراف) ، فالأول قد عبر عنها الفيلسوف الألماني " يورغن هابرماس " J.Habermas 1929 ، ممثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية ، من خلال مشروعه الفلسفي الموسوم بـ (نظرية الفعل التواصل) وهي تهدف في جوهرها إلى التفاهم بين الذوات و إعادة تشكيل الهويات الفردية من جديد داخل الفضاء العمومي بدون صراع أو نزاع . ثم جاء تلميذه الفيلسوف الألماني " أكسل هونيث " 1949A.Honneth ليوسع من نظرية أستاذه ويعطيها بعد إنساني أكثر بكثير من خلال مفهوم " الاعتراف " - التي تعود إلى فكرة " الثيماس " مع أفلاطون ، وجدلية " السيد و العبد " مع هيجل - حيث أراد من خلال هذا المفهوم إعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية للحد من المعاناة والظلم الاجتماعي والسياسي و اللامساواة بين الناس ، وكل أشكال الاحتقار والازدراء ، ليصل في آخر المطاف إلى تحقيق العدالة وحقوق الإنسان والحرية في إطار الاعتراف المتبادل بين جميع ثقافات وديانات شعوب العالم .

إذا، هذه إلا غيض من فيض الفلسفات العالمية التي قدمت موقفها من هذه الثنائية ، والتي حاولت من وراء ذلك تحرير الإنسان من التشنجات والاضطرابات الخطيرة التي تنجم عن سوء فهم لهذه العلاقة ، وأخذته إلى بر الأمان أين يكون السلم واللاعنف والتسامح ، وهذا الأخير الذي يدل على الإيجاب تحول اليوم إلى تسامح يعبر عن عدم الاكتراث بالهوية أو بخصوصية الآخر ، فالمطلوب من الإنسان أن يصبح إنسانا طبيعيا عاما ليس له حدود إنسانية خاصة، إنسانا مرنا قادرا على تغيير قيمه بسرعة.

أما ما يتعلق بجدلية الفكر / الواقع فإنها مسألة لا تقل أهمية عن سابقتها لما لها من أثر كبير في التفكير الفلسفي وفي المعرفة الإنسانية عموما، وما فيها من غموض وصعوبة في تحديد تعريف شامل لكل واحد منهما، خاصة مفهوم " الواقع " فهذا الأخير يعد مصطلح فضفاض يتلون بعدة دلالات كلما ارتبط بموضوع ما (في الحقل الفلسفي)، فقد ظهرت هذه المسألة منذ القدم بداية مع أفلاطون وأستاذه أرسطو ، ومرورا بالفلسفة الوسيطة بين النزعتين الصورية و الاسمية وصولا إلى الفلسفة الحديثة والمعاصرة مع المثاليين الألمان (هيجل ، كانط) و ضد المثاليين (الماركسية ، الوجودية) والوضعية المنطقية. ولهذا يجعلنا نتساءل : هل هناك واقع واحد أم وقائع ؟ سؤال يمكن الإجابة عنه إلا من خلال فهم وتحليل العلاقة القائمة بينه وبين الفكر ، كما نضيف إليهما عامل اللغة ، لأن هذه العناصر الثلاثة (الفكر، اللغة ، الواقع) هي التي تشكل الوجود البشري في هذا الكون وتحدد مكانته وشخصيته فيها . ولكن هذا لا يكون بالأمر الهين وذلك بسبب تعدد النظريات واختلافها من حيث: الأصل و الحقيقة و الأولوية، أي ما هو أصل

الوجود الخارجي : الفكر أو الواقع المستقل، ومن يملك الحقيقة : ذاتية الفكر أو موضوعية الواقع ، وما هي القضية التي يستوجب الاهتمام بها أولاً: انطباق الفكر مع ذاته أم انطباق الفكر مع الواقع .

وفي هذا المقام سنحاول تقديم بعض النماذج من الفلاسفة الذين قدموا مواقف يمكن القول عنها إنها حلول إيجابية و معقنة ضيقت الهوة بين الفكر والواقع. فـ " رونييه ديكارت "R.Descartes، زعيم التيار العقلي في الفلسفة الحديثة، نتلمس في كوجيتوه المشهور (أنا أفكر، إذن أنا موجود) وجود بعض التواشج في العلاقة ، حيث يرى " ديكارت " أن من خلال الشك (المنهجي) وهو تفكير في حد ذاته لا يتعارض مع العقل، وهذا ما تنص عليه القاعدة الأولى في منهجه ومفادها " أنه لا يمكن أن نشك فيما هو واضح أبداً " أي أن وضوح الفكرة يؤدي إلى وضوح الوجود، وهو الأمر نفسه يستدل به في فكرة وجود " الامتداد " حيث يرى أنه (كما لا يمكن الشك في التفكير لأنه معطى مباشر نستطيع أن نشك في واقعية المادة التي لا تعطى لنا إلا عن طريق الحواس، وكما أن الله لا يعطينا ملكات تحددنا ، فهذا يحملنا على القول بأن عالم المادة موجود وبالتالي فالامتداد موجود).¹ ومنه نستخلص إن مسألة الفكر والواقع ، حسب المنهج الديكارتي ، يجب أن تؤسس على مبدأ الوضوح واليقين حتى لا يكون هناك اضطراب في العلاقة بينهما. أما " هيجل " F.Hegel فإنه لم يتعد كثيراً عن موقف " ديكارت " ، فقد استعان بالمنطق كدعم أساسية في مذهبه الفلسفي² ، وذلك من أجل إزالة التعارض الحاصل بين ما هو ذاتي وموضوعي في هذه الثنائية ، أي أراد القول بأن المنطق يتواجد في صلب الأنطولوجيا وليس غريب عنها، فمقولات الفكر - في نظره - هي المنطق نفسه ، وهي مقولات الكينونة في الوقت نفسه. وهنا نكون أمام (انعكاس للديالكتيك الواقعي من خلال الديالكتيك الهيغيلي الذي يضم ثلاث أقسام كبرى هي : نظرية الكينونة ، نظرية الماهية ، نظرية التصور)³، وعليه ، فإن الجدلية القائمة بين الفكر والواقع يمكن التعبير عنها باللغة الهيغيلية على النحو التالي : أن كل ما هو عقلي هو واقعي بصورة فعلية، وما هو واقعي بصورة فعلية هو عقلي ، لتصبح هذه القاعدة بمثابة (مبدأ كل حركة وكل حياة وكل ما يتم عمله في عالم الواقع، بل أنه أيضاً روح كل معرفة تسعى بأن تكون علمية لأن ما يحيط بنا هو مثال على نشاطه)⁴.

أما الفيلسوف الأمريكي " جون سيرل "J.Searle 1932 ، الفيلسوف الذي اقتفى آثار الفلسفة التحليلية وراح يهتم بمشكلات أساسية ، لها علاقة وطيدة بالثنائية ، كمشكلة اللغة و العقل من خلال مؤلفاته : أفعال الكلام: مقال في فلسفة اللغة 1969 ، وفلسفة اللغة 1971 ، القصد العقلي: مقال في فلسفة العقل 1983 ، وعقلانية العقل

1 - أحمد ملاح، المختصر في تاريخ الفلسفة الغربية ... من طاليس إلى باشلار، رياض العلوم للنشر والتوزيع - الجزائر ، الطبعة الأولى 2006 ، ص 86.

2 - يقول " هيجل " عن المنطق (إذا نظرنا لمنطق على أنه نسق الفكر الخالص، فسند العلوم الفلسفية الأخرى، كفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح بتطبيقات للمنطق ذلك لأن المنطق هو الروح التي تشعب الحياة في هذه العلوم " - نقلا عن : مونيس بحضرة، تاريخ الوعي ، منشورات الاختلاف - الجزائر ، الطبعة الأولى 2009 ، ص 223.

3 - مونيس بحضرة ، المرجع نفسه ، ص 219.

4 - المرجع نفسه ، ص 227 .

2001 وغيرها¹. وما يعرف عنه أنه وجه انتقادات للفلاسفة الذين قالوا بوجود واقع خارج عن ذاتنا، وانطلاقاً من سؤال: كيف يمكن للمجتمع أن يبنى أو يقيم واقعا؟ قدم "سيرل" فرضيات يبين فيها موقف هؤلاء والرد عليهم، حيث يرى أن لكي نفهم رؤيتنا للعالم² بشكل جيد والتمعن فيها، يجب علينا أن نميز بين الذاتية والموضوعية، وفي الوقت نفسه يجب أن نميز بين هذين الآخرين من حيث المعنى الاستمولوجي و المعنى الأنطولوجي لهما، ومن خلال ذلك وضع "سيرل" الفرضيات التي تحدد السمات البنيوية لهذه الثنائية (الفكر والواقع) على النحو التالي:

1- استقلال وجود عالم الواقع بنفسه عن الأشكال التي نتصوره عليها أو نمثله بها، و يطلق على هذه الرؤية باسم " الواقعية الخارجية " .

2- للبشر طرق متنوعة تتواشج فيما بينها، يتناولون بها الوجود ويصوّرون سماته ويمثّلونه بها، منها الإدراك الحسي، والأفكار، واللغة، والمعتقدات والرغبات... الخ. ويطلق على كل هذا باسم " التمثلات " وهذه الأخيرة تكون لها صلة بالقصد العقلي سواء كان هذا التوجه أصليا أو كان له سبل يتوسل بها إليه .

3- توحى بعض أشكال التصور التي نعبر بها عن الوجود ومثله عليها، كالمعتقدات و العبارات بأنها تمثل الكيفية التي توجد عليها الأشياء في عالم الواقع ، وعلى قدر نجاحها أو إخفاقها يحكم عليها بأنها صادقة أو غير صادقة، وهذه ما تسمى بنظرية التطابق (بين الصدق و الواقع).

4- تتأثر جهود الإنسان الفعلية لبلوغ أشكال تعبير تتصور بها الواقع وتمثل له بما تمثيلا صادقا بكل أنواع العوامل - الثقافي منها والاقتصادي و النفسي وغيرها - فمن الصعب أن نستخلص من هذه العوامل موضوعية ابستمولوجية تامة، لأن البحث الفعلي يكون عن طريق العوامل الشخصية ، وتدفع بها داخل سياق ثقافي تاريخي بعينه.

5- يتألف امتلاك معرفة ما من امتلاك أشكال تعبير صادقة، تتصور بها الواقع ومثله بما لما يمكن أن نقدم له أنواعا بعينها من المبررات و الأدلة، فالمعرفة في أساسها مسألة موضوعية (ابستمولوجيا) لأن المعايير التي تطلبها ليست معايير جزافية ولا هي معايير شخصية³.

ومنه ينتهي " سيرل " إلى القول بأن رؤيتنا للعالم تنطلق من زاويتين أحدهما (ذاتي) نشكل به الواقع انطلاقا من تصوراتنا و سياقاتنا الاجتماعية والثقافية والنفسية والإيديولوجية كذلك، والأخرى (موضوعي) يفسر الواقع

¹ - جون ر. سيرل، بناء الواقع الاجتماعي ... من الطبيعة إلى الثقافة، تر: حسنة عبد السمیع، المركز القومي للترجمة- القاهرة، الطبعة الأولى 2012، ص ص 10 09 .

² - يعرف " لوسيان غولدمان " في " أطروحة حول استعمال مفهوم رؤية العالم في تاريخ الفلسفة " مفهوم (رؤية العالم) بأنه : المنظور المنسجم والموحد حول علاقات الإنسان بأمثاله وبالكون. - نقلا عن : محمد شوقي الزين ، الثقافة في الأزمنة العجاف، المرجع السابق، ص 434 .

³ - بتصرف : جون سيرل ، المرجع السابق ، ص ص 190 191 .

انطولوجيا يجمع و يبوحد بين كل وجهات النظر المختلفة ، ولكن بالرغم من ذلك يؤكد على عدم وجود واقع خارجي مستقل عن تفكيرنا الخالص .

وهكذا ، ومن خلال هذه النماذج، فإن الحقيقة التي يمكن أن نستنتجها من ثنائية الفكر / الواقع هي الدعوة إلى الحرية الإنسانية من خلال حرية العقل ، وهي ماهية الفلسفة عينها ، في تشكيل حيز وجوده داخل هذا العالم ورؤيته الحسنة له ، بعيدا عن أوهام و خرافات التقنية (في جانبها السلبي) التي تحول الناس إلى عبيد لها و إلى مجرد " أشياء " تتحكم في غرائزهم وعواطفهم إلى أن تصل لعقولهم، وأيضا بدون الضغط عليه بالأحكام الدوغمائية ذات الطابع الارتجالي و الأفكار الوهمية التي تصنع منا إلا كائنات عدوانية ووحشية تعرف إلا لغة العنف و الدمار ، وهذا ما سنكتشفه في مسألة العقل والإيمان .

تعد مسألة العقل/ النقل من أكثر الإشكاليات ذات حساسية كبيرة واجهت الوعي البشري منذ القدم، فالكثير من يصنفهم ضمن خانة التعارض و التنافر وهم المتكلمين و الفقهاء في ثقافتنا ، ورجال الدين المتعصبين في الثقافة الغربية . فلا نجد إلا بعض الفلاسفة الذين تناولوا الحكمة وغاصوا في أعماقها ومن ثم عرفوا مقاصدها انتهوا إلى القول بأن هناك ثمة توافق و ترابط بين ما أنزل من السماء من حقيقة وشرع وما قدمه العقل الإنساني من اجتهاد حولهما . ويمكن في هذا الصدد أن نقدم نموذجين بارزين في تاريخ الفلسفة اللذان عرفا كيف يعالجان هذه الثنائية ، من خلال نزعتهم الدينية المنفتحة و حنكتهم الفلسفية الخالصة ، ونقصد الفيلسوف اليهودي " فيلون الاسكندري " Philon 13 D'Alexandrie ق م 50- ، و الفيلسوف الإسلامي القرطبي " ابن رشد " 1126م - 1198م.

إن النشأة العلمية لـ " فيلون " داخل مدرسة الإسكندرية والمعروف عنها أنها كانت أشهر المدارس آنذاك في العالم ككل التي اختزلت كل الثقافات و العلوم ، لا سيما الدين والفلسفة ، سنحت له الفرصة أن يطبق هذه التجربة داخل ثقافة مجتمعه من خلال مؤلفه الموسم بـ : " رسالة إلى العبريين " ، وخصوصا عندما (لاحظ أن أعدادا كبيرة من اليهود يتخلون عن تقاليدهم الدينية ويعتقون المذاهب الفلسفية ، حاول أن يعيدهم إلى أصولهم بإظهار لهم التكامل الموجود بين التوراة والفلسفة ، وعلى وجه الخصوص فلسفة أفلاطون ، ولأجل ذلك عمل جاهدا على تأويل التوراة تأويلا فلسفيا .)¹ وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن " فيلون " كان رجلا مجددا جمع بين الثقافة اليهودية و الثقافة اليونانية عن طريق الفلسفة التي تعود لهذا الأخيرة ، لعله أراد من ذلك تخليص الشعب اليهودي من العادات السيئة التي لا تتوافق و الكتاب المقدس قبل توفيق هذا الأخير بالفلسفة اليونانية، لأننا نجد من بين مواقفه يؤكد على أن (جميع الحوادث و الأخلاق والعقائد والشرائع المنصوص عليها في العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازي و الآخر حرفي وأنها

ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية¹ وهكذا لم يلبث " فيلون " حتى أصبح يلقب بـ " أفلاطون اليهود " وهذا دلالة على نجاحه في مشروع التوفيق الداخلي و الخارجي للوعي اليهودي آنذاك و للوعي الغربي عموماً.

وهو الأمر نفسه قد شغل بال فيلسوف قرطبة " ابن رشد " طيلة حياته ، في إطار تراث الفكر الإسلامي ، حيث جاء في زمن قد بلغ بالمسألة ذروتها عندما تناوها المتكلمين (المعتزلة ، الأشاعرة ، الباطنية ،...) بالجدل الممل غير المجدي نفعا ، والفقهاء بخطاباتهم السطحية التي لا تسمن ولا تغني من جوع أهل الحكمة والنظر الفلسفي ، و حتى الفلاسفة الأوائل (الفارابي، ابن سينا، الغزالي ، ابن طفيل) ببراهينهم الناقصة ، في نظر ابن رشد ، والتي تؤدي لا محالة إلى الخطأ ومن ثم إلى الكفر والزندقة . وعليه قام "ابن رشد" بالمهمة حاملاً للأدوات العقلية متجاوز لكل الإشكاليات التي طرحها هؤلاء والتي تبقي صاحبها يدور في حلقة مفرغة لا مخرج لها . فتمعن في النص الأصلي (القرآن الكريم) جيداً ثم استخرج منه كل ما يوافق الخطاب الفلسفي في مسائل الوجود و الألوهية و حياة الإنسان، ثم خرج في آخر المطاف بنتيجة مفادها إن الطريق الذي يسلكه الشرع هو نفسه الطريق الذي تسلكه الحكمة ، وأن الهدف الذي تسعى إليه هذه الأخيرة هو الغاية ذاتها يسعى إليها الشرع ويقترها. ومن هذا المنطلق يعرف لنا الفلسفة في كتابه "فصل المقال" بأنها (النظر في الموجودات وهي تدل بدورها على الصانع لمعرفة صنعها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم).² وهو تعريف جامع مانع يبين فيه " ابن رشد " مقاصد و غايات الثنائية في (مناهج الأدلة) و يفصل عنهما كل ما يؤدي إلى الاضطراب والتنافر في (فصل المقال) ويرد به عن تهافت كل من جهل حقيقة الثنائية في (تهافت التهافت). وفي هذا السياق يقول ابن رشد حول هذه العلاقة (... فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع إذا كان مغزاهم في كتبهم و مقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه (ومنه) أن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له)³. ولكي يؤسس " ابن رشد " رؤية عقلية للشريعة ورؤية شرعية للعقل استعان بمفهوم " التأويل " حتى تكون فلسفته ذات فلسفة مفتوحة على كل الزوايا وتقرأ من كل الجهات، أي تساهم في فتح باب الاجتهاد للعقل لفهم النص الديني وتجاوز مبدأ الرؤية الأحادية له. و لكن " ابن رشد " وضع ضوابط وشروط لهذا الفن (أي التأويل) يجب أن يحتكم إليه كل من يدخل في هذا المجال ، حتى وإن كان العلماء ، وهي كالاتي (احترام خصائص الأسلوب العربي في التفسير ، احترام الوحدة الداخلية للقول الديني ، وأخيراً مراعاة المستوى المعرفي لمن يوجه إليه التأويل)⁴

1 - ماهر عبد القادر محمد و حربي عباس عطيتو ، دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية-القاهرة، ب ط، سنة 2000، ص 54 .

2 - أحمد ملاح ، المرجع السابق، ص 69 .

3 - نقلاً عن : المرجع نفسه ، ص 68.

4 - مونس بحضرة، تأملات فلسفية ، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع اربد- بيروت ، الطبعة الأولى 2013 ، ص 131 .

وهكذا تمكّن " ابن رشد " ، بعقل أرسطي وبنزعة دينية منفتحة ، من التوفيق بين الشريعة والحكمة ضمن دائرة التأويل ، بعدما فشل سابقه من المتكلمين والفقهاء والفلاسفة من ذلك . فبدل أن يطرح أسئلة تثير إلاّ الجدل السلبي والفتاوي الباطلة مثل : هل الدين يخضع إلى العقل؟ أم العقل هو الذي يخضع إلى الدين ؟ ، تجاوز كل هذه الإشكاليات الناقصة ، في نظره ، وطرح إشكالية بأكثر دقة ووضوحاً : هل يجوز توظيف النظر الفلسفي في الشرع أم يعد كفراً وزندقة؟ فأراد من ذلك أن يحافظ على هوية كل من المجالين في تكوين وخدمة الوعي البشري ، وخاصة الوعي العربي والإسلامي ، والرقي به إلى قمة الإنسانية الحقيقية دون طغيان طرف على طرف آخر وبالتالي حدوث الفتنة الأشد خطراً من القتل.

إذا ، إن الاعتقاد بخطورة ثنائية العقل/ النقل وصعوبة التوفيق بينهما هي فقط مسألة ظاهرية لعامة الناس ، ولكن في حقيقة الأمر إنها إشكالية تحتاج إلى أشخاص ذو عقول فذة ومنفتحة ، يرون بعيون الحكمة ، يعرفون كيف يتعاملون مع مثل هذه المواضيع الحساسة، و يكتشفون في آخر المطاف ، بعد التعمق في جوهرها، بأن العلاقة التي تجمع بينهما هي علاقة اتفاق وترابط وتداخل . وهي النتيجة التي توصل إليها كل من " فيلون الاسكندري " رمز التجديد في الفكر اليهودي والمسيحي و " ابن رشد " رمز التجديد و التنوير للإنسانية عامة، وكأن بهذا الوصف قد أدرك جيداً بأن المشكلة الحقيقية التي يعاني منها الإنسان " الماضي ، الحاضر، المستقبل " هي (مشكلة معرفية وليست مشكلة انطولوجية)¹.

إذا كانت الثنائيات السابقة قد تعلقت بالمسائل البيئذاتية للإنسان ، إن صح التعبير ، الآن نتطرق إلى مسائل العالم الخارجي التي تحيط بالإنسان ويتكيف معها ، ونقصد بذلك ثنائية الطبيعة/ الثقافة أي بتعبير " كلود ليفي ستراوس C.L.Struass (بين ما توارثه من الجانب البيولوجي ... وكل ما نستمدّه ونكتسبه من التقاليد الخارجية "التربية")²

وهذه المسألة قد اهتم بها كثيرا الفلاسفة البنيويين وعلماء الانثربولوجيا قصد معرفة أهم العوامل التي ساهمت في تطور البشرية والأسباب المؤدية لهذا التطور في الوقت نفسه ، وأبعد من ذلك ذهب البعض إلى طرح التساؤل التالي: ما هي الحياة المناسبة للإنسان : الطبيعة (الحياة الحيوانية) أم الثقافة (حياة المجتمع والتمدن)؟،ربما يبقى سؤال غريب نوع ما؛ سنحاول الإجابة عنه بدون الغوص فيه لأنه في النهاية يوصلنا إلى التناقض والغموض وبالتالي يدفعنا الأمر أن نحكم على هذه العلاقة بالانفصال و التنافر. ولكن في الحقيقة أن القول بهذا الحكم هو نتيجة " سوء فهم " ، وهذا الأخير يحيلنا إلى مشكلة (اللغة) التي تلعب دوراً هاماً داخل هذه الثنائية وتتحكم فيها كما تشاء، وهذا ما دفع " ستراوس " يقول (... في اليوم الذي نستطيع فيه إيجاد حل لمشكل أصل اللغة، سنفهم كيف يمكن إدماج الثقافة في

1 - المقولة (حرفياً) تعود إلى المفكر المصري " ناصر حامد أبو زيد " في كتابه (فلسفة التأويل).

2 - نقلاً عن : عبد الرزاق الداوي ، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت ، ب ن ، ص 83 .

الطبيعة، وكيف تحقق الانتقال من نظام إلى آخر)¹، فقد انتبه البابليون بعد نهاية بناء البرج أنهم لا يفهمون بعضهم البعض ، فبعدهما كانوا كأسرة واحدة أصبحوا غرباء لا يعرف الآباء أبناءهم ولا يعرف سيد القوم رعيته، فهل هذا راجع إلى الطبيعة أم الثقافة؟.

إن الإنسان معروف عليه منذ القدم بأنه كائن يجب الاكتشاف و التطلع إلى الأشياء الجديدة غير المألوفة عنده، فيبدأ يسمي " الأشياء " بلغته البسيطة ويفكر كيف يستعملها في حياته اليومية كالصيد و اللباس والطبخ... الخ . هنا يمكن القول أنه يريد التكيف مع الطبيعة التي يحس فيها أحيانا غريبا عنها وأنها كقوة تتحكم فيه بإملاء قوانينها عليه، وفي الوقت نفسه أنه لا يدرك بأن محاولة التكيف هي عنوان " الثقافة والحضارة" أي أنها مرحلة تطور الوعي البشري الحاسمة في عملية الإنشاء و البناء والتعمير و الإصلاح والإنتاج والرعاية ، وأكثر من ذلك ، تأمين البقاء والاستمرار الجيد لكيانه . فالدعوة إلى الحياة الطبيعية هي دعوة للحفاظ على الإنسان بيولوجيا وفيزيولوجيا وعلى كيانه عموما ، فالطبيعة تجعل الإنسان مستعدا للتطور والتغير للانتقال إلى حياة جديدة من خلال منحه القوة الروحية التي لديها، وليست عالم لا معنى له تقيدته و تقيده على الحياة الحيوانية تتحكم فيه غرائزه ورغباته الجارحة. وفي الوقت نفسه ، إن الدعوة للحياة الثقافية الاجتماعية – وما فيها من نظم و دساتير و مؤسسات متنوعة تسلب وتغرب الإنسان عن هويته – لا يعني ذلك هي حياة السعادة الحقيقية والأمن والاستقرار، لأن الواقع بين لنا وجود طبيعة ثانية تختلف عن الأولى في أدوات السيطرة والتحكم في الإنسان حيث تحوله إلى حيوان أشد خطرا يهوى الأنانية و الفردية " السلبية " والعداوة التي خلقتها الثقافة الوهمية ذات (تحكما تعسفا في طاقة الحياة عند " فرويد " ، وحرمانا للإنسان من اللذة والمتعة باسم قيم عليا في نظر " نيتشه " ، أو تسخيرا للجسم والجنس خدمة للأهداف الحضارة برؤية " ماركوزية " ، وهكذا تتحول الثقافة – عند هؤلاء – من تعبير عن الإنسان إلى أداة لقمعه وكبت غرائزه، وكلما كانت ذات طابع أخلاقي صارم ومضاد للحياة وللطبيعة كانت نتيجتها حدوث العُصاب و الأمراض النفسية على نطاق أوسع)²

وبالتالي على الإنسان اليوم أن يدرك المغزى الحقيقي لهذه الثنائية وهي أن "الأصل أو الهوية " هو الأساس داخل هذه الحياة المليئة بالأوهام والخداع ، وإنكار هذه الحقيقة والابتعاد عنها يؤدي بالإنسان إلى الاغتراب ثم الموت البطيء وبالتالي إلى العدمية التي لا يمكن للهوية والشخصية أن تعود من جديد ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن تحقيق الإنسان الحضاري و الحضارة الإنسانية لا تكون إلا من خلال التوازن الفعلي والدائم بين حيوانية الإنسان المعتدلة و الهوية الثقافية الحقة التي تكمل مهمة الطبيعة فيزيولوجيا ، نفسيا ، تربويا ، وحضاريا.

1 – المرجع نفسه ، ص 84 .

2 – محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الطبيعة والثقافة (دفاثر فلسفية-نصوص مختارة)، دار توبقال –المغرب، الطبعة الثانية1998 ، ص06.

أما فيما يخصّ بثنائية الفلسفة/ العلم هي أيضا قد أخذت نصيبا ضمن الإشكاليات الفلسفية المهمة ، وخاصة في الوقت الراهن ، حيث تركت الإنسان في حيرة من أمره حول أحقية ومصداقية إحدى المجالين أو الأهمية الكبرى لمجال عن آخر ، وهذا كله من أجل السعي نحو المعرفة (كيانه ، الطبيعة ، الله ، ...) وتحقيقها بحكم طبيعتهم التي تدعو إلى الاستكشاف والتطلع على ما هو مجهول ، وهو ما تطرق " أرسطو " في كتابه (ما بعد الطبيعة) حينما قال (أن البشر جميعا يسعون إلى المعرفة بحكم طبيعتهم)¹ .

إذا كانت الفلسفة هي عملية " تفلسف " بحكم استعمالها للبرهان المنطقي، حيث يتعامل الفلاسفة مع البراهين، فإما أن يبتكرونه، وإما أن ينتقدوا براهين غيرهم أو الاثنان معا ، كما يخللون ويفسّرون المفاهيم، وأن العلم – أو المنهج العلمي – بوجه عام يعدّ (وسيلة فاعلة لتبيين سلوكيات العالم الطبيعي وكذلك توقعها)² . نكتشف بعض نقاط التقارب و الالتقاء بينهما ، و هذا ما تفسره مجموعة من الأسئلة التالية التي توحى إلى تقاسم الهموم بين العالم والفيلسوف في مواضيع الإنسان والعالم : (هل هناك غرض وراء هذا الكون أو أن الأمر لا يعدو أن يكون تجمعا للذرات تلعب فيه المصادفة الدور الأول؟ هل العقل شيء أساسي في صلب الأشياء أو هو أحد نتائج وجود المادة في مرحلة معينة من مراحل تطورها؟ أو لعل المادة نفسها مجرد وهم خلقه قصور الإنسان؟ هل الصواب أو الخطأ والجمال والقبح مبادئ مستقلة الكيان قائمة بذاتها أو هي مجرد ألفاظ رنانة نهدف من استعمالها إلى تفخيم ما نحب وتشويه ما نكره؟ هل عالم الأجسام التي تنتشر في الفضاء هو العالم الوحيد الموجود، أو هناك عالما آخر روحيا يعكس قدرا من الحقيقة أكثر من العالم الحسي المألوف؟ هل الزمان والمكان و التغير صفات أو خصائص في العالم المحيط بنا ، أو هي مجرد مظاهر ليس لنا أن نقبلها و أنها ذات بريق أخذ يضلل أبصارنا عن الحقيقة)³ . هذه بعض الأسئلة التي توضّح مدى قيمة كل من الفلسفة و العلم في حياتنا اليومية ، وبالرغم من الاتهامات المتبادلة بينهما أو الموجهة لكل منهما هذا لا يمنع أن يكون هناك تكامل في المبدأ و الطريق والهدف الذي يوصلنا إلى غاية أسمى ألا وهي " الحقيقة " عنوانها الجوهرى : حقيقة بالحكمة الفلسفية وحقيقة باليقين العلمي . فالعلم جزء من الفلسفة والفلسفة جزء من العلم ، موضوعهما يندرج تحت راية (معنى الحياة) : مسائل حول الدين، الصواب والخطأ، السياسة ، وطبيعة العالم الخارجي، العقل، العلوم والفنون ، وغيرها من الموضوعات العديدة ، فأينما وجد العلم وجدت الفلسفة – وفي أغلب الأحيان –أما وجدت الفلسفة وجد العلم. وتأسف كثيرا على بعض الاتجاهات المعادية ، خاصة من جانب الفلسفة ، التي تقدم حججا وبراهين لا محل لها من الإعراب ولا ترقى إلى مستوى " منهجية الخطاب الحجاجي " ، حيث تسعى مجتهدة في تحقيق الانفصال وتوسيع الهوة بينهما من خلال الكلام السطحي الذي يستقبله عامة الناس على شكل نداءات ودعاوي تدق ناقوس الخطر يهدد

1 – أرسطو ، دعوة للفلسفة ، تر: عبد الغفار مكاوي، المرجع السابق ، ص 08 .

2 – نيغيل واربرتن، الفلسفة الأسس ، تر: محمد عثمان ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر – بيروت ، الطبعة الأولى 2009 ، ص 109 .

3 – الفيلسوف جود، فصول في الفلسفة ومذاهبها، تر: عطية محمود هنا و ماهر كامل ، مهرجان القراءة للجميع 2003 – القاهرة، ص ص 38 39 .

حياتهم الفكرية والمعرفية والدينية : (الفلسفة هي مجرد جدال و كلام فارغ ، الفلسفة تؤدي إلى الكفر والزندقة وخروج عن الدين، ...). ولكن نجيب على هؤلاء ، فبالمثال يتضح المقال ، أن الفلسفة بمثابة " القائد العسكري " الذي يراقب مجريات المعركة من خيمته ، حيث تصله التقارير عن جيشه فيبدأ يصنف ويحقق، ثم يضع المواقف حسب الحالة المناسبة لها بعد تقييمها بدون إصدار الأحكام النهائية في تلك اللحظة . وأكثر من ذلك أنها كمصفاة تتجمع فيها كل نتائج الأبحاث و الخبرات الإنسانية حيث تنقي من شوائبها وتقيم لبقية منها ما هو جدير بالبقاء، في هذا السياق يرى " نيغيل واربورتن " N.Warburton بالرغم من (أن الفلسفة لا تؤثر بالضرورة في أسلوب عمل رجل العلم، إلا أن الأمر المؤكد هو قدرتها على التغيير من نظرتة إلى عمله)¹.

و ما نخلص إليه من هذه الثنائية هو أن الإنسان في هذه الحياة ، و الواقع شاهد على ذلك، لا يريد سوى حقيقة يطمئن لها فكره وسعادة يهدأ لها فؤاده وأمن و سلام يحقق له الخلاص ، وكل ذلك يكون إلا من خلال امتلاك مهنة " التفلسف " كعملية إنتاج و تنظيم للأفكار المبعثرة (نظريا) في عقل الإنسان، وإعدادها للتوظيف والتطبيق في العالم الخارجي بواسطة المنهج العلمي (الملاحظة، الفرضية ، النتيجة)، أو العكس عندما تكون هناك تجارب علمية يتطلب الأمر معرفة نتائج نتائجها قبل الخروج بها من المخبر، تحتاج إلى البرهان المنطقي للتوسع فيها واستخلاص فلسفة العلاقة بين عناصرها ، وهكذا تتم العملية الحقيقية لمعالجة هذه المسألة بكل موضوعية ومرونة ، ف "هايدغر " يقصد بأن العلم لا يفكر ، هو ليس اتهاماً موجّه للعلم، في نظره ، ولكنه (وصف لبنيته الداخلية، هذه البنية أساسها تابعة لماهية التفكير الفلسفي من جهة ، ولكنها ما يترتب عن كونها محل تفكير من جهة أخرى (...)) وهنا بالتالي نجد أن هايدغر لم يكن ضد التقنية كما يراها بعض الباحثين وإنما كان اهتمامه موجّه مباشرة إلى ما يسمى اليوم بـ " الفيزياء البيولوجيا " ²

إن الحديث عن الفلسفة أو التفكير الفلسفي لا يكفينا كتابة مقال أو كتاب أو حتى موسوعات ، وهذا دليل على الأهمية والمكانة الكبرى الذي يحتله هذا الفكر في الحياة الإنسانية. فالإنسان منذ وجوده في العالم مفطور على عملية البحث و الاكتشاف عن الحقيقة أو حقيقة الحقائق (معرفة الله) ، فهذه الأخيرة هي بمثابة - على حسب كل ديانة أو اعتقاد - الحياة السعيدة المطلقة و كمال الإنسانية ، والفكرة ذاتها تطرق إليها " أرسطو " حيث قال : (أن الباحث بأقصى جهده عن الحقيقة هو الذي ينفرد بأكمل حياة ممكنة)³. وهذه الحقيقة في جوهرها تتداخل وتتقاطع فيها كل العلوم ، سواء علوم الطبيعة أو علوم الإنسان ، وبالرغم من اختلاف مبادئها ومناهجها إلا أن لها قاسم مشترك وهو " خدمة الإنسان أولا ومن ثمّ تغيير صورة العالم " ، هو هدف ومشروع أسمى يحمله الفيلسوف على عاتقه ويحرص على

1 - نيغيل واربورتن، الفلسفة الأسس ، تر: محمد عثمان ، المرجع السابق ، ص 203 .

2 - عمر مهيبيل ، من النسق إلى الذات ، المرجع السابق ، ص 242 .

3 - أرسطو، دعوة للفلسفة ، المرجع نفسه ، ص 08 .

تجسيده في أرض الواقع بكل حماس وتضحية ، مستعينا بصوت العقل الحر والتربية السليمة متجاوز بها برائن الجمود والانغلاق والمركزية.

صحيح أن بعض العلوم قدمت خدمات كبيرة للإنسان سهّلت له عملية التكيف مع الطبيعة وزادت من وتيرة التقدم و التطور في حياته اليومية؛ إلا أن مع مرور الزمن اتضح له بأن ما كان يطمئن له ويسعده في المرة أصبح يهدد كيانه وممتلكاته في مرات كثيرة، الأمر الذي دفع بالإنسان أن يفكر في وسائل بديلة للخلاص من الأزمات المتتالية عليه أو على الأقل تقليصها والحد منها من خلال عقلنتها وتوجيهها توجيه ثقافي مهذب ، يكتسب من خلالها الإنسان - على حد قول مالك نبي في كتابه " مشكلة الثقافة " - ذوق أخلاقي ، جمالي، عملي ، و صناعي ، وبالتالي يتحول إلى إنسان حضاري ضمن الحضارة الإنسانية .

وعليه ، فإن الاتهامات التي لا فحوى منها والموجهة إلى الفلسفة (الحقيقية) ، أو إلى أي علم على حساب علم آخر، لا يمكننا أن نتقدم خطوة إلى الأمام لتصحيح المسار أو توضيح الرؤية لمستقبل إنساني عقلاني حر عنوانه (التسامح، السلم ، اللاعنف ، ...) ، فهي (أي العلوم) غالبيتها قد تواضع عليها البشر لحل مشاكلهم وانشغالهم اليومية بأنفسهم داخل هذا العالم الفسيح ، فالاختلاف في التأويل و التفسير قائم إلى الأبد و التغيير قادم بلا محالة ، لأن فيلسوف الحضارة " مالك بن نبي " علمنا بأن (إذا بزغت الفكرة سقط الصنم) ، وهي مهمة الفلسفة ذاتها حيث قال " كارل ماركس " إن (مهمة الفلسفة قد اقتصر على تفسير العالم بطرق مختلفة في حين أن المهم هو تغييره) ، والتغيير الحقيقي يبدأ من الإنسان ويمر بفكره ليصل إلى الواقع ، هي قاعدة أساسية نأمل أن تتجلى بكل وضوح وشفافية في واقعنا العربي الإسلامي المعاصر.